٩ - جمهوريات القرى والقبائل:

إن ضرورات الحياة الراعوية والفلاحية حتمت نشوء مجموعات أوسع وأقوى من العائلة "الأغنية"، فأهل النجعة يتحدون للحفاظ على الأراضي التي يمرون منها. وأهل الحضر المتعاطون للفلاحة يشيدون القرى لصد هجومات أعدائهم الألداء وهم البدو. وقد (أصبحت هذه القرى جمهوريات صغيرة خاضعة لسلطة مجلس الشيوخassemblée gérontocratiqueهو نموذج الجماعة في بلاد القبائل يدير الشؤون المشتركة ويعاقب) المتمردين حسب قوانين عرفية) القانون في بلاد القبائل، والأزرف في المغرب الأقصى (. ومن فوق العائلات "الأغنية" ومجموعات العائلات الراعوية وجمهوريات القرى توجد القبائل التي هي عبارة عن دول صغيرة وحدت صفوفها للدفاع والهجوم)ستيفان قزال(. وتحتفظ مجموعات العائلات "الأغنية" باستقلالها حتى ضمن القبيلة وتوفد نوابا عنها لمجلس مشترك. ولكن عندما تضطرم الحرب تختار القبيلة قائدا يسعى إذا هو نجح في مهمته إلى الانفراد بالحكم وجعله وراثيا.

والقبائل تنهار أو تنتصر وتنتشر أو تنكمش كما تشاء صدف الحرب. وكثيرا ما تأكل أجزاء القبيلة بعضها بعضا نتيجة لقيام شيع وأحزاب متنازعة داخلها، وهي الصفوف)المفرد الصف، وهو اللف بالمغرب الأقصى (وتتحد أحزاب بعض القبائل مع أحزاب قبائل أخرى قد تكون لا تعرف الاستقرار. ولا نزال نجهل كل شيء تقريبا عن توزع القبائل جغرافيا قبل الاحتلال الروماني.

١٠ - اتحاد القبائل والاغليد:

قد يجمع بعض القواد قبائل عديدة تحت سلطانه بماله من هيبة أو عن طريق القسر والغلبة أو أصبح اغليدا لها أو كما يقال ملكا عليها. والغالب على الظن أن الممالك البربرية تكونت على هذا النحو قبل الدول التي يرتبط تاريخها بتاريخ قرطاج وروما. واتحادات القبائل أقل استقرار من القبيلة نفسها. فالملك يفرض من دون شك سلطته على بلاد المخزن التي تشتمل على سكان المدن والحضر المقيمين في السهول وتمتد أو تضيق بحسب سلطانه. أما بلاد الصبا المشتملة على سكان الجبال وقسم من البدو

فكثيرا ما تفلت من قبضته. وفي غالب الأحيان تتخلى عنه بعض القبائل وحتى القبيلة التي ينتسب إليها بعد أن أنهكتها الحروب التي تحملت العبء الأكبر منها أو أضنتها اللذات التي أتاحتها لها ثرواتها فتدفع بموته ثمن انتصارها.

إن سلطان الملك على قدر هيبته، فهو يستعين في ممارسة الحكم لا بموظفين رسميين بل بأقاربه أو خدمه، ويستشير وجوبا رؤساء القبائل الذين يقام لآرائهم وزن يتناسب مع عدد رعاياهم. فإذا ما غضبت عليه القبائل شقت عصا الطاعة في وجهه وقلته. ولذا فإن سياسته كانت ترمي دائما إلى تفريق صفوف المعأرضين.

إن الملك وقبل كل شيء قائد تنضوي تحت لوائه بصفة مستمرة جيوش تمده بها قبيلته وخاصة الفرسان، وفي الأوقات العصيبة يجند عدد من "القوم" من القبائل الأخرى، وهم جنود من الطراز الأول، ولكن سلاحهم ناقص، وخضوعهم للنظام مرتبط بتقديرهم الشخصي للمنافع التي تنجر عن المعركة التي زج بهم فيها ملكهم.

والمشكلة المالية هي أكثر المشاكل استعصاء عن الحل، فالسلط المحلية تستخلص لا محالة الأداءات على المحصول الفلاحي وعلى الماشية عرضا في القبائل والقرى، وعينا في المدن، ولكن الملك كثيرا ما كان يكتفي بالهدايا التي تقدمها عن طواعية القبائل المنيعة، أو يجبي الضرائب بواسطة "الحركة" التي تعمد في نفس الوقت إلى نهب الجهات المترددة. ولا توجد أي مساواة في توزيع الضرائب.

إن الكثير من المؤسسات والعادات الإفريقية كان يوجد ما يماثلها في بلدان أخرى من البحر المتوسط، ولكن بعض البلدان مثل "غوليا" سرعان ما غيرتها بإضافة عناصر

خارجية إلى تراثها الذاتي. أما بلاد المغرب فقد بقيت هي هي غيورة على شخصيتها. وخضعت إلى السيطرة المادية لشعوب أجنبية من دون أن تتأثر بروحها. ورغم ذلك فإن تأثير قرطاج التي اتصل بها بعض البرابرة في أول الأمر فقط طبع مظاهر تفكيرهم وعاداتهم بطابع لم يمح حتى بعد سقوطها.

الباب الرابع

قرطاج

التوسع القرطاجي: -

١ - الفينيقيون في بلاد البربر:

إن الاستعمار الفينيقي الذي دخلت بلاد البربر بفضله في التاريخ لا نعرف من طوره الأول إلا ما تفيدنا به روايات مشكوك في صحتها. وإذا اعتمدنا بعضها فإن أهل صور (Tyriensيكونون قد أسسوا مراكز تجارية على السواحل الإفريقية منذ القرن الثاني) عشر قبل المسيح نذكر منها أوتيكة على الساحل الغربي من خليج تونس وذلك سنة كما نذكر لوكسيس1101)Lixusالشبيهة بقادس في نفس الفترة وعلى الساحل) الأطلسي للمغرب الأقصى. ويقال: إنها تأسست سنة ١١١٠ . إلا أن ما يثير الاستغراب على ما يبدو، هو أن يؤسس الفينيقيون هذه المراكز البعيدة قبل أن يضمنوا الأساكل التي تسيطر على مدى نشاط ملاحتهم كل ثلاثين كلم تقريبا. ولعل المصادر القديمة المتعلقة بتاريخ الاستعمار الفينيقي لم تميز دائما - كما يعتقد ذلك ب. سانتاس - بين طور التعرف والاكتشاف الذي يفسح المجال لتجارة غير منتظمة وبسيطة نسبيا، وبين طور الاستعمار الحقيقي الذي تؤسس فيه المراكز التجارية القارة.

وإذا بلغ البحارة الفينيقيون -كما هو محتمل جدا- سواحل المحيط الأطلسي منذ القرون الأخيرة من الألف الثانية قبل المسيح، بحثا عن ذهب السودان من جهة، وعن ( ) فضة اسبانيا وقصدير جزر الكسيتيريد)جهة فانVannetaisالتي تصل طرقها إلى) "ترشيش" قرب مصب الواد الكبير من جهة أخرى، فإن الاستعمار الفينيقي -على ما يبدو- لم تتوطد أركانه إلا شيئا فشيئا من الشرق إلى الغرب. ولقد استقر الفينيقيون في أول الأمر على سواحل "سرتا" ثم أقاموا في قرطاج من دون شك قبل أن يؤسسوا - مستعمرات حقيقية. وهذا ما تؤيده الرواية التي نقلها ديودورس الصقلي) ٧٢٠وما) نستنتجه أيضا من أنه لا يوجد قبر واحد من القبور البونيقية المكتشفة إلى هذا اليوم على السواحل الجزائرية المغربية أقدم من القرن الخامس أو القرن السادس على أكبر

. تقدير) في تيبازةTipasaعلى بعد سبعين كلم غربي الجزائر.)

ش. جوليان تاريخ شمال إفريقيا

٧٤ ٧٥

أوائل قرطاج:

إن قرطاج لعبت دورا عظيما في تاريخ إفريقيا الشمالية. إلا أنها قبل أن تبز المراكز الفينيقية الأخرى وتصبح عاصمة بعد ما كان من تقلبات صور وخرابها سنة ٣٣٢ ، لم تكن في أول أمرها سوى إسكلة متواضعة بين سائر مراكز التموين الأخرى. وقد كشفت الحفريات التي تواصلت من سنة ١٩٤٤ إلى ١٩٤٧ بصلامبو في منطقة قرطاج القديمة على معبد يرجع عهده إلى ما قبل الطور القرطاجي. وما وجد فيه من أشياء لا يترك مجالا للشك في وجود بحارين شرقيين في هذه الجهة منذ آخر الألف الثانية أو أولى قبل المسيح. إن بعض المستعمرين القادمين من "صور" وقبرص الذين تعتبرهم الأسطورة -خطأ على ما يبدو- لاجئين هم الذين أسسوا حوالي سنة ٨١٤ في عهد الملك بغماليون "قرط حدشت" أي مدينة حديثة، في الخليج الذي تنصب فيه مياه واد مجردة وواد مليان ملتقى جانبي البحر الأبيض المتوسط. ويقال: إن أخت "بغماليون" عليسة)أو ديدون(ملكة "صور" هي زعيمتهم، إلا أن وجودها وإن كان ممكنا فهو مشكوك فيه.

إن وضع قرطاج الجغرافي كان يساعد على التوسع الإفريقي والتبادل مع العالم الشرقي أو الغربي. وكذلك كان لوضعها العسكري مزايا هامة لأنها أقيمت كغالب المدن الفينيقية، في رقعة من الأرض متوغلة في البحر لا يربطها بالبلاد إلا قطعة مستطيلة تفصل بين بحيرة تونس التي كانت صالحة للملاحة وسبخة أريانة وبذلك كانت تتحدى حصار الأعداء مثل "صور".

لقد كانت قرطاج متواضعة في أول تاريخها، تدفع الخراج وتقدم الهدايا لمعبد هرقليس "الصوري" مما جعل بعض المؤرخين يرون هذا العمل الذي قد لا يكون سوى مظهر للتقوى دليلا على خضوعها لصور. وواصلت قرطاج دفع الضرائب السنوية الليبيين طيلة ثلاثة قرون ونصف من غير انقطاع يذكر.

إلا أن هذه المدينة بفضل هيبة طبقتها الارستقراطية ومهارتها، وخاصة بفضل ما اتصفت به عائلة "ماغون" القوية من روح المبادرة، استغلت انحطاط "صور" وفرضت شيئا فشيئا حمايتها على المدن الفينيقية ثم ما لبثت أن سيطرت عليها. وينبئ الأثاث الذي عثر عليه في قبور القرن السابع على اتساع مجالها التجاري وتضخم ثرواتها حتى (" أنها تمكنت سنة ٦٥٤ من إرسال معمرين في جزيرة "بتيوزPityuseإبيسا (. ( )

ولعل تناقص الذهب والتحف الفنية في قبور القرن السادس يدل على تضاؤل ازدهار قرطاج، ذلك أن اليونان كانوا يبسطون نفوذهم في ذلك الوقت على غربي البحر الأبيض المتوسط. وقد أصبح الفرس يسيطرون على "صور" ومصر وقريني. لكن قرطاج ردت الفعل بشدة، ووجدت من الزعماء البارزين من أعانها على بسط استعمارها الناشئ، مثل "مالكوس" الذي حارب في صقلية وسردانيا و"حقق أشياء عظيمة ضد الإفريقيين" . على حد تعبير يوسطينوس ثم ختم نشاطه بافتكاك الحكم حوالي سنة ٥٥٠

وتمكنت قرطاج من طرد "الفوسيين" من جزيرة كرسيكا بإعانة "الاتروريين" بعد انتصارها البحري بألاليا)أليريا في الساحل الشرقي حوالي ٥٣٥ (. واستعانت بالليبيين في آخر القرن السادس لطرد "دوريوس" وهو ابن أحد ملوك سبارتا أقام إمارة في ليبيا طيلة سنتين، بين سبرتا الصغرى سبرتا الكبرى واضطر إلى الالتجاء إلى صقلية حيث انهزم تحت ضربات القرطاجيين والسجستيين.